

السكن والمسكن في العمارة العربية التقليدية (أ)

د. وليد السيد
معماري / جامعة لندن

يعالج هذا المقال وما يلي ضمن سلسلة مقالات مقبلة فكرة المسكن والبيت العربي التقليدي. وتأتي هذه المقالات في محاولة لتتبع أبرز ملامح البيت العربي على طول أرجاء الوطن العربي الممتد من جهة، ولإدراك خصائص البيئة الاجتماعية في الثقافة العربية الإسلامية من جهة أخرى. وذلك من أجل تتبع فرضية مفادها أن البيت العربي واحد من حيث عكسه للخصائص الاجتماعية ونظام الحياة اليومية للفلسطينيين على اختلاف الأقاليم الجغرافية ضمن الوطن العربي، وتنبع هذه الفرضية من أن النظام الاجتماعي المستمد من العادات والتقاليد الاجتماعية والإعراف قد مصدرها الدين كمنظومة تشريعية قد انعكس بالتالي على قوانين البيئة المبنية ونظمها من ناحية، كما أسهم

في تشكيل البيئة المبنية وشكلها الفيزيائي الحسي من ناحية أخرى. وبما فُقد الإسلام كدين قد انتشر وقن الحياة الاجتماعية على طول امتداد العالم الإسلامي فإن البيئية بحسب ما يمكن التوصل إليه ضمن قوانين (حدس الاتصال) أن البيت العربي لا بد وأن يكون واحداً على امتداد العالم الإسلامي، وأن التغييرات الشكلية التي نراها بين مدينة وأخرى على التكوين الفيزيائي الحسي للتوزيعات الفراغية للبيت إنما هي طفيفة تعكسها عوامل (المحلية) فيما تطغى الصيغة (الأقليمية) على التكوين العضوي للبيت. فهل كان ذلك كذلك؟ الإجابة على هذا التساؤل ليست باليسيرة وتشكل موضوع المقالات المستمدة من هذا المقال الافتتاحي التي ستتناول بالدراسة والتحليل نماذج من البيت العربي ضمن أقطار ومدن عديدة من الوطن العربي والإسلامي الممتد شرقاً وغرباً، حيث سيكون البيت العربي في دول الخليج العربي وبلاد الشام

وشمال أفريقيا والمغرب العربي وخاصة مدار البحث لهذه المقالات المقبلة. وأن فكرة دراسة البيت العربي التقليدي إنما تتضمن البحث واستقصاء أبرز عواكس النظام الاجتماعي، حيث أن البيت هو نتاج وإداة في نفس الوقت تعكس العادات والتقاليد التي تسود المجتمع ضمن فترة معينة من تاريخ حضارة ما. كما تسهم التكوينات الفراغية للبيت في تحديد حركة وسلوكيات القاطنين، وبكلمات أخرى فإن الطبيعة التكوينية للفراغات البيئية وطبيعة الإطلالة للخارج ومدى الاتصال بين الداخل والخارج وتحديد درجة الخصوصية تنعكس بشكل مباشر أو غير مباشر على سلوكيات وأخلاقيات وربما أيضاً بطابع القاطنين. ولعله ليس من دلائل حسي ملموس بين أيدينا في هذا المجال مما يقع في دراسات علم النفس إلا ما نجده في الأثر ما مفاده أن من نعم الله تعالى على العبد

والزوجة الحسنة والداية أو الركوب وسعة الدار (أو كما ورد). وهكذا نجد أن البيت المريح نفسياً له مجموعة خصائص منها السعة مثلاً، وهكذا، مما يدعم الفكرة بأن للبيت تأثيراً نفسياً على سلوكيات القاطنين. بل إن التفاصيل اليومية في حركة أصحاب البيت خلال الفراغات المختلفة ومقدار الخصوصية والفصل بين الكبار والصغار، والقاطنين والزوار لها الأثر الكبير في هذه السلوكيات. وهو موضوع واسع جسد ذاته. ونظراً لأهمية ومركزية البيت في حياة الإنسان وتأثيره على طابعه ونتاجيته كقدر ضمن المجتمع فقد ورد في القرآن الكريم إشارات ودلالات لهذه الأهمية والمركزية. وقرن ذكر البيت بالسكن والسكنية (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً) حيث كان السكن والمسكن من السكنية، كما ورد في ذكر الحياة الزوجية التي تتعلق بالبيت أيضاً كلمة السكنية (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها....) وهكذا كان البيت جزءاً حيوياً من المنظومة الاجتماعية في الحياة الإسلامية، وتشكل الحياة الزوجية محوراً آخر ضمن محتوى البيت نفسه، فالسكنية تتحقق مع وجود هذه العناصر المتلائمة معاً. ولم يقتصر الإسلام على ذكر البيت كوصف فقط إنما حدد العلاقات المختلفة ضمن البيت بما يكفل توفّر الخصوصية وحصول الغاية من البيت وهو السكن. فقد حدد القرآن الكريم علاقات الأفراد ضمن البيت من جهة، (لا تدخلوا بيوتنا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) حيث يروى في الأثر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد افق من نومه ساعة القيلولة وقد اكتشف من ثوبه شيء لدى دخول أحد الأحداث عليه فقال لو نزل في القرآن شيء في ذلك، وهي واحدة من متوافقات عمر مع ما نزل من القرآن الكريم. كما حدد القرآن الكريم أيضاً العلاقة بين القاطنين والزوار من جهة أخرى (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) وهكذا تدل الآثار والأدلة في الإسلام على أهمية البيت في حياة المسلم وكلمته مهمة في المدينة العربية الإسلامية.



لعل أبرز العقبات التي تواجه الباحث لهذا النوع من المباني



التركيبة على دور المناخ في تشكيل عناصر ومفردات البيت وتحليل العناصر الرئيسية المكونة للبيت وغيرها كالأبواب والبيوت كالفناء وغيرها، أو دراسة عامل الخصوصية من حيث تقسيم البيت إلى قسمين رئيسيين: حرمك وسلامك وهكذا. أما غاية المقالات التي تبدأ من هذا المقال الافتتاحي فهي الوقوف على أوجه الشبه والاختلاف بين البيت العربي على طول امتداد العالم الإسلامي الممتد، لحض أو تأكيد فكرة أن البيت العربي هو واحد رغم اختلاف الأقاليم الجغرافية؛ أو أن هناك أكثر من (بيت عربي واحد) تتناثر إقليمياً وربما (محلداً)، وهو مشروعا للمقالات المقبلة لا بشكل متتابع والله الموفق.

الروايات المختلفة وكتب الأدب العربي، ورحلات الرحالة العرب وغيرها كالأبواب والبيوت كالفناء وغيرها، أو دراسة عامل الخصوصية من حيث تقسيم البيت إلى قسمين رئيسيين: حرمك وسلامك وهكذا. أما غاية المقالات التي تبدأ من هذا المقال الافتتاحي فهي الوقوف على أوجه الشبه والاختلاف بين البيت العربي على طول امتداد العالم الإسلامي الممتد، لحض أو تأكيد فكرة أن البيت العربي هو واحد رغم اختلاف الأقاليم الجغرافية؛ أو أن هناك أكثر من (بيت عربي واحد) تتناثر إقليمياً وربما (محلداً)، وهو مشروعا للمقالات المقبلة لا بشكل متتابع والله الموفق.

البيت (الحيطة الفراغية المعمارية) وبين طبيعة النمط الاجتماعي السائد الذي يحياه أفراد البيت، ولا بد هنا من الإشارة بأن بعض الدراسات إنما تجتذ في نقل صورة عما يدور في البيت من خلال وصف القسم العام من البيت الذي يسمح للضيوف بالحلول فيه، أما القسم الخاص وغالباً ما تدور به الأنشطة العائلية فلم يحظ بوفرة النصيب من الوصف فيما خلا ما كان يدور في القصور وبيوت كبار التجار وهذه لا تعكس نمطية مجتمعية إنما فردية اقلية لطبقة مترفة من طبقات المجتمع. وكذلك نجد بعض الأوصاف العامة للبيت العربي التقليدي من خلال ما ورد في

المعمارية هي (الخصوصية) التي تغلف وتحيط بالبيت والتي تمنع الباحث من الوقوف على نمط الحياة اليومية التي يعيشها قاطنو البيت. وذلك نجد أن من مصادر المعلومات حول البيت هي وصف المستشرقين التي انحصرت في عكس مفهوم الخصوصية ودور المرأة في البيت وبالتالي المجتمع، ومن هنا فقد كانت الدراسات وبخاصة الاستشراقية منها سطحية من جهة، وتقع في المزالق أو التحيزات الأهوائية في نقل صورة صادقة عن النمط الاجتماعي للبيت وبالتالي للمجتمع من جهة أخرى. ولذلك نجد أن أغلب الدراسات التي تصف البيت العربي تخلو من اعطاء صورة متكاملة بين أجزاء

البادجير أو ملقف الهواء في عمارة الخليج عموماً والبحرين خصوصاً

العملية من ادخال الهواء البارد للمبنى من جهة وإخراجه من ناحية أخرى يتم إيجاد تيار هوائي مشعش خلال فتحة الصيف، حيث يمكن الجلوس في الصيف الهواء هذا أو وضع جران الماء أو زراعة الأشجار التي تلقي بالظل لتوفير الهواء ومنطقة الضغط المنخفض داخل البيت حيث الهواء البارد الذي يسهم في تحريك مجرى الهواء لدى سخونته وصعوده للأعلى وحلول هواء آخر محله من خلال البادجير أو برج الهواء. وهذه الآلية في تحريك الهواء وإيجاد مناطق ضغط منخفض وأخرى مرتفع هي علمية محضه تتمتع من مقدار الحساسية في التعامل مع الظروف والمتغيرات المناخية من خلال العمارة التقليدية في دول الخليج العربي عموماً والبحرين والإمارات العربية خصوصاً. ويتم من المفردات المعمارية التي تلائم الواقع وليس فقط من أجل التشكيل المظهري الخارجي.

درجة الحرارة العالية أثناء فترة الصيف، والبادجير الذي يفتح من أربع جهات يمكن التحكم بفتحاته الأربع وإغلاقها وفتحها حسب الحاجة. ويقال البادجير في عمارة شمال أفريقيا وبلاد المغرب العربي ما يسمى ملقف الهواء والغرض بينهما أن الأول ذو فتحات بالاتجاهات الأربع فيما يوجه ملقف الهواء بفتحة واحدة باتجاه الرياح السائدة. وعملاً بنظرية فرق الضغط لا بد من وجود منطقة ذات ضغط منخفض وأخرى مرتفع يتم تحريك دوران الهواء بين هاتين المنطقتين في البيت أو المبنى. ومن هنا فإن البادجير لا يعمل لوحده داخل المبنى لتحريك دوران مجرى الهواء إنما هناك إما فناء داخلي وإما منطقة غالباً ما يتوفر بها ماء حيث يتم تبريد الهواء وحيث يكون الهواء البارد في المنطقة السفلى القريبة من مستوى الأرض فيما يصعد الهواء للأعلى وتقل كثافته وضغطه فيتم إخراجه من المبنى من منفذ آخر وهكذا، وتتابع هذه

والعمارة العربية التقليدية في بلاد الخليج العربي ونظراً للطبيعة الصحراوية والمناخية القاسية قد عكست بجلاء هذه الفكرة، حيث تشكلت تكويناتها العضوية ومفرداتها المعمارية نظراً لطبيعة المناخ، كما كانت مواد البناء الطبيعية المستعملة المتوفرة من الأخشاب والطين من أبرز ما شكل الناتج النهائي، وليس ذلك فقط لنواح وأحوال اقتصادية إنما خدمت أغراضاً وظيفية ولعبت دوراً مهماً في تخفيف درجات الحرارة اللاهبة لتقي قاطنيها من قيظ الصيف وبرد الصحراء ليلاً. وبرزت مجموعة من العناصر المناخية التي طورتها الحاجة وغايتها وظيفية محضه ابتداءً، ومن هذه العناصر ما يعرف بالبادجير، فما هو البادجير؟ البادجير أو ما يسمى برج الهواء هو بناء برجي كما تظهر الصورة المرفقة يعلو فوق المبنى ومفتوح من الجهات الأربع لالتقاط الهواء وتريريه لداخل المبنى من أجل إيجاد مجرى أو حركة للهواء داخل البسييت أو المبنى لتلطيف



روائع التراث العربي الإسلامي

□ لوناورد - لندن

تتميز العمارة العربية التقليدية بأنها كانت نتاجاً وانعكاساً مباشراً للمؤثرات الطبيعية المختلفة. إذ عكست الطبيعة الجغرافية الإقليمية من جهة، كما عبرت عن الأحوال السياسية والدينية السائدة. إضافة إلى ذلك فقد وصفت بأنها بيئية بمعنى استجابتها لعوامل البيئة المحيطة من مناخية وطبيعية ونوعية مواد البناء المتوفرة التي شكلت وصاغت معالمها ومفرداتها. وتتميز هذه العمارة بأنها بانتشارها في أقاليم متنوعة مناخياً وجغرافياً فقد طورت مجموعة من المفردات التي حملت مضموناً متشابهها إلا أن الآلية التفصيلية وصفت من الباحثين بأنها كانت استجابة لواقع المحلي من عادات وتقاليد وأعراف بثنائية وغيرها.

متحف اللوفر - باريس



□ لوناورد - باريس

متحف اللوفر بباريس هو واحد من أشهر المتاحف في العالم مما سمع عنه الكثيرون. وتأتي شهرة هذا المتحف من تاريخ بناء هذا المتحف حيث تضرب بأعماق التاريخ، وكذلك من طبيعة وقيمة المعروضات التي يحتويها هذا المتحف الشهير. فتلقي بعض الضوء على هذين الموضوعين.

يعود تاريخ بناء متحف اللوفر للقرن الثالث عشر الميلادي، أي إلى حوالي العام ١٢٠٤م حيث تكشفت التنقيبات الأثرية عن وجود قلعة من العصور الوسطى من قبل الملك فيليب أو غسطلوس، التي كانت كقلعة المدخل للقسم العام الذي يقود للمعروضات تحت منسوب سطح الأرض، فيما توفّر الأهرامات الصغيرة المحيطة الأتاراة والعلاقة بين الداخل والخارج، أما مصمم اللوفر الجديد فهو Ming Pei. وقد تم إنشاء اللوفر بشكله الحالي كمتحف في العام ١٧٩٣م لعرض مجموعة اللوحات الفنية للملكية التي لم يكن يتسع لها المتحف القديم مما حدا بالرئيس ميران لإنشاء ما عرف لاحقاً باللوهر الضخم Grand Louvre وذلك بترميم المباني القديمة وتفعيلها بشكل متكامل مع البناء الهرمي. أما المعروضات فنقسم إلى سبعة أقسام رئيسية يضمها المتحف: الأول وهو قسم الآثار المصرية، وتضم معروضات لابي الهول أرجواني اللون، ومعروضات أخرى

ضمن هيكل معدني على شكل هرم ثلاثي. وهكذا يلتف المبنى القديم الحجري حول الساحة التي تضم مجموعة أهرامات اكبرها الهرم الذي يحوي المدخل للقسم العام الذي يقود للمعروضات تحت منسوب سطح الأرض، فيما توفّر الأهرامات الصغيرة المحيطة الأتاراة والعلاقة بين الداخل والخارج، أما مصمم اللوفر الجديد فهو Ming Pei. وقد تم إنشاء اللوفر بشكله الحالي كمتحف في العام ١٧٩٣م لعرض مجموعة اللوحات الفنية للملكية التي لم يكن يتسع لها المتحف القديم مما حدا بالرئيس ميران لإنشاء ما عرف لاحقاً باللوهر الضخم Grand Louvre وذلك بترميم المباني القديمة وتفعيلها بشكل متكامل مع البناء الهرمي. أما المعروضات فنقسم إلى سبعة أقسام رئيسية يضمها المتحف: الأول وهو قسم الآثار المصرية، وتضم معروضات لابي الهول أرجواني اللون، ومعروضات أخرى



ويبدو أن فكرة المتاحف بما تتضمنه من تجول عبر فترات تاريخية مختلفة تعد جزءاً تلقائياً مهماً للأفراد حيث تعويض وتكمل في بعض الأحيان الأطلاع على المعرفة من خلال الكتب. بالإضافة لما تنمطه من حفظ ذاكرة وتراث وتاريخ الأمة والضياع أو النسيان، وبأحياناً لو انتشرت في وطننا العربي المتاحف الشاملة بشكل واسع بحيث تشكل محور استقطاب علمي وإقليمي ومحلي بدلاً من أن يعرض تراثنا في متاحف العالم المختلفة.

